

ينطوي الحديث عن مستقبل الفكر الفلسفي العربي على إشكاليات مركبة لها وجوه عدة، يتصل بعضها بطبيعة السؤال الفلسفي في هذا العصر وبعضها بالموجهات التي تحدد ماهية ذلك السؤال، وأخرى بالظروف المرافقة لعملية التفكير الفلسفي، وأخيرا بالغاية من ممارسة هذا الضرب من التفكير في زمن تداخلت فيه وظائف العلوم الطبيعية بالعلوم العقلية، وكل هذه الوجوه تضافرت معه، فجعلت التفكير الفلسفي مهددا بشتى الصعاب، إلا إذا اشتقت له أهدافا مضافة للأهداف التقليدية التي كان يسعى لتحقيقها من قبل، وهو أمر يمكن تحقيقه إذا توافرت الشروط المناسبة لتجديد ذلك التفكير على المستويات المنهجية والمستويات المتصلة في داخلها، أسئلة متداخلة حول الحديث عن مستقبل الفكر الفلسفي في الثقافة العربية، أما جانبها الآخر فهو الاختلاف الذي لا يزال يشكل موضوعه أزمة فعلية حادة في الفكر العربي المعاصر، فبعد صراعات دموية وحروب ضاربة خاضتها بعض الأمم والشعوب، تبلورت رؤية موضوعية للاختلاف من قبل المفكرين، واعترفوا بقانونية الاختلاف وأعطوه صبغة ثقافية رسمية، فبقرأة سريعة في بيان الجمعية العامة للأمم المتحدة unesco الصادر في عام 2002م، الذي أعلنته يوم 21 ماي اليوم العالمي للتنوع الثقافي من أجل الحوار والتنمية، وبقرأة أخرى إلى محتوى بيان الإعلان الإسلامي حول التنوع الثقافي للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافية (إيسيسكو isesco)، يتبين كل باحث أن البشرية تسعى اليوم إلى اعتمادها على قيم الانفتاح والتسامح، والنسبية والتعددية وحقوق الإنسان، وبأن الاختلاف أصبح جوهرها وروحها للديمقراطية.

إن الأهمية الإستراتيجية التي يحظى بها مفهوم الاختلاف في الفكر الغربي تعود إلى أنه «انطلاقا من الاختلاف ومن تاريخه يمكننا معرفة من، وأين نحن، وما يمكن أن تكون عليه حدود عصرنا»<sup>(1)</sup>.

ولكن لتحويل الاختلاف الثقافي بين الثقافات، إلى ثقافة في الاختلاف يحتاج هذا إلى طرح فلسفة الاختلاف على طاولة البحث والتحليل لمعرفة تجلياتها وشخصياتها، أعلامها، وحتى تتأصل

(1)-jacque Derricla- L'écriture la déférence-Seuil, 1967, p 33.

ثقافة الاختلاف وفلسفته كقيم عالمة sanante، ثم تترجم واقع الناس لثقافة سلوكية شعبية لتحقيق السلام العالمي، وسيادة شراكة الكينونة بين كل الشعوب في زمن القرية العالمية الواحدة أو في زمن الغرفة العالمية الواحدة على حد تشخيص ليفي ستراوس «تقلص فيها العالم، وانكشفت المسافات وتكاثفت عمليات التواصل والتبادل على المستوى النفسي والأخلاقي، وأصبحت الأرض أكثر صغراً»<sup>(1)</sup>.

يسعى هذا البحث لرصد، وإبراز وجهة نظر مفكرين وباحثين لتنمية عوامل اختلاف جوهريّة وجديدة تعمل على تغذية الذات الثقافية بطابعها الخاص الذي ينشغل بوقائعه وموضوعاته هو، والذي يبحث بنفسه عن الحلول الممكنة للصعاب التي تواجه أسئلته الخاصة، وفي شعب المعرفة نفسه الدخول مع الآخر في حوار فاعل إنه من المعلوم ليس في شعب المعرفة الإنسانية واحدة، اختلف فيها اصحاب اختلاف الفلاسفة في شعبتهم، فما أن يدعي أحدهم دعوى حتى يقوم إليه من يعترض عليها، وما أن يسلك في فكره طريقاً حتى يبرز من يعارضه بطريق غيرها، وما أن يقيم بناء نظريته على قواعد معينة، حتى يأتي من بعده من يتولى هدم هذا البناء من أساسه، وما زالت الدعاوي المتعارضة والمسالك المتضاربة

فلا غربة من أن ينفذ مفهوم الاختلاف إلى بيئات فكرية وثقافية مغايرة للبيئة الفكرية والثقافية التي تولد عنها ونشأ فيها، منها البيئة الفكرية العربية الإسلامية، إذ وجد للاختلاف صدى في الخطاب الفلسفي الغربي المعاصر، وحصلت محاولات كثيرة لتبينة هذا الوافد في المجال التداولي العربي الإسلامي، فالنظريات المتنازعة تستبد بالممارسة الفلسفية كلها، حتى عدّ بعضهم هذا الاختلاف بين المشتغلين بالفلسفة مثليه في باب المعرفة لا تعد لها مثلية استهزأ منها البعض، أو استنكرها البعض الآخر، فإذا جاز أن يقدم الاختلاف الشديد بين الفلاسفة والمفكرين المتعاطين للنموذج الفلسفي الغربي، فلم لا يجوز أن يبلغ هذا الاختلاف الفلسفي الغاية في الاشتداد، وهذا ما جعلنا نؤمن بحاجة الأقاليم جميعاً، إلى دخولها في علاقات حوارية بعضها مع بعض، فالاختلاف يوجب الحوار، والحوار

(1)- L'identité, Collectif auteurs Claude Lévi-Strauss, Jean-Marie Benoist, Michel Serres, Françoise Héritier-PVF-2007-p 10.

إنما هو تواصل السؤال فيكون مثله، هو الخاصية الأولى للفلسفة، وعلى هذا فالحوارية بين الفلسفات القومية المختلفة لا تقل دلالة على التفلسف من الحوارية داخل الفلسفة القومية الواحدة.

من أولئك المفكرين العرب الذين سجلوا موقفا بارزا من الحق في الاختلاف، وقدموا إسهامات متميزة، ورفضوا الانغماس في القيم والفنون والآداب التي أشاعها الفكر الغربي وروج لها، المفكر طه عبد الرحمن الذي فتح بفكره حقلا معرفيا خصبا، وقدم منتوجا فلسفيا متميزا في الفكر العربي المعاصر، يناظر في قوله النقدية والبنائية والاستدلالية غيره من المسارات الفلسفية الأخرى، خصوصا الغربية منها، إذا شكل مشروعه رؤية نقدية بارزة عملت على تقويم مختلف نتائج العقل الحداثي الغربي، وذلك ببيان هشاشة مرتكزاته لما أفرزته من مختلف مظاهر التأزم والاختناق، هذا من جهة، ومن جهة ثانية شكلت أعماله نقطة تحول حاسمة في سبيل بناء فضاء فلسفي عربي إسلامي مبدع ومستقل يضاهي في مناهجه ومعارفه الفضاء العربي، وهذا ما يلمسه كل مهتم بفكر طه عبد الرحمن، ومشتغل على تأليفه وفي سبيل الوقوف على موقف طه عبد الرحمن بشيء من العمق والاستضافة، من هذا المنطلق تأتي هذه الدراسة لإبراز وجهة نظر هذه الشخصية العربية حول موضوع الحق والاختلاف، وتبيان إضافاتها وإسهاماتها الفكرية لإثراء الثقافة الإنسانية.

وبالرغم من أن شخصية مثل طه عبد الرحمن لا يمكن أن تختصرها الدراسات والتعريفات، كما أن الكتابة عنه مجازفة، إلا أننا اخترناه على من سواه، ليكون موضوعا للبحث، لأنه يمثل في نظرنا استثناء قل نظيره في العالم الإسلامي لقد كان الدكتور طه عبد الرحمن يسعى ولا زال لتقديم نظرية فلسفية عربية جديدة والتي شكلت وأبرزت مواقفه الإنسانية وجعلتها محطة كبرى، كان لابد لنا من التوقف عندها لتحليلها واستخلاص العبر منها، والنظر في منطلقاتها النظرية والعقائدية واستنتاج منظومتها القيمية المرتبطة دلاليا برؤية ومعرفته لصعيد الفكر والواقع.

وبناء على الإشكالية التي تناولناها في البحث، يمكن القول بأن المفكر طه عبد الرحمن يبلي اهتماما بموضوع الاختلاف الفكري العربي الإسلامي وحقهم فيه، والموقف الذي اتخذه يعد بحق من المشاريع الهامة في الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة، ومساهمة بشكل فعال في إعادة تأسيس منجزات

الفكر العربي الإسلامي على أصول جديدة، مستقلة استقلالاً جوهرياً عن البيئة الفكرية والثقافية الغربية، بل نابعة من البيئة الفكرية والثقافية العربية الإسلامية، وهذه الغاية التي يصبو إليها د. طه عبد الرحمن وتعد من البواعث الأساسية التي أثارت اهتمامي، وكانت من الدوافع المباشرة التي دفعتني إلى البحث في هذا الموضوع.

وعليه اتجهنا لدراسة فلسفة الاختلاف والحق العربي فيها عند الفيلسوف طه عبد الرحمن لدوافع ذاتية بحكم التخصص الأصلي القاعدي في الفكر العربي المعاصر، ومن خلال قراءتنا لما كتبه المفكر طه عبد الرحمن بنفسه وما كتب عنه، ظهر لنا البعد الإنساني الإسلامي في مشروعه ولمسنا في شخصيته مبادئ وقناعات هي من مقومات الشخصية العربية الإسلامية الأصلية، بل هي إحدى مقومات الإنسان العالمي المنفتح على كل الثقافات والحضارات والديانات، إذ كان سعيه الدائم نحو تقديم نظرية فلسفية عربية جديدة، أما فيما يخص الدوافع الموضوعية فنذكر منها:

1- محاولة تدعيم المسار الذي دعا إليه المفكر طه عبد الرحمن في اعتبار فلسفة الاختلاف مشروع فلسفي يقوم على ترسيخ قيم التنوع، والتعدد، كما أن هذه الفلسفة تنزع نحو الكونية سواء في نظرتها إلى الدين أو اللغة أو الإنسان أو الحداثة، تأسيسه لخطاب فلسفي عربي إسلامي متجاوز واختلافي، إثراء للفلسفة والفكر عموماً وفكرته بأن الاختلاف يتنافى مع البحث عن الحقيقة باسم منطق الهوية وباسم الماهية، والأصل والنموذج والعقل المتمركز على الذات لنموذج غربي أحادي التوجه، بل فلسفة الاختلاف تتماشى مع التفكير والتأمل والأشكالية، وغيرها من العمليات الفكرية التي تشكل في مجموعها فعل التفلسف.

2- إثراء الدراسات حول فلسفة الاختلاف والفكر العربي الاختلافي الفلسفي وحول حوار الحضارات والثقافات، وتدعيمها لجهود المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم الثقافية، إيسيسكو ISESCO، ومنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم الثقافية اليونسكو UNESCO.

3- قلة البحوث حول المفكر طه عبد الرحمن والمقصود من ذلك ندرة البحوث الأكاديمية التي تتعلق بالجانب العرفاني للرجل، وما وقع بين أيدينا من كتابات لم تتعدى دراسة نتاج المفكر في حدود دراساته .

4- محاولة تصحيح أحكام تعميمية خاطئة أصدرها الأنثروبولوجي كلود ليفي شتراوس حين صرح قال: «إن المسلمين لا يستطيعون احتمال وجود الآخر كآخر» وقوله: «اللقاءات القصيرة التي جمعي بالعالم العربي رسخت في نفسي نفورا وكرهية يتعذر استئصالها»، وقوله: «لقد أصابتنا عدوى العنف الإسلامي».

وفيما يخص الأسئلة الكبرى التي توطر هذا البحث والتي سوف نحاول الإجابة عليها ومناقشتها بالتفصيل والتي سيبني عليها هذا العمل:

- إلى أي مدى استطاع المفكر طه عبد الرحمن أن يأسس للحظة الاختلاف في الفكر الفلسفي المعاصر؟

- ما مدى تغلغل آفة التقليد في الفكر العربي؟ وما السبيل إلى التخلص منها في رأي كطه عبد الرحمن؟

- فيما يكمن الاختلاف؟ وما خصائصه في المنظور الطاهوي؟

- كيف السبيل إلى قيام فلسفة عربية مبدعة في تصور طه عبد الرحمن؟

أما فيما يخص الفرضيات الأساسية للبحث فهي:

- لقد استطاع طه عبد الرحمن أن يتمايز عن غيره من المفكرين العرب من خلال جهازه المفاهيمي.

- لقد تمكن طه عبد الرحمن من أن يقارب للحظة الاختلاف من خلال مشروعه التأثيلي.

- يصبو المفكر طه عبد الرحمن من خلال مشروعه الفلسفي إلى تحقيق الحرية الفكرية للأمة العربية الإسلامية بتحرير القول الفلسفي من التبعية للفلسفة الغربية.

وفيما يخص الدراسات السابقة حول هذا الموضوع، فلم أجد دراسات لها علاقة جد مباشرة بهذا الموضوع.

وانطلاقاً من أن منهج البحث هو «الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيم على سير العقل وتحديد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معقولة»، وبما أن طبيعة الموضوع تتحكم إلى حد بعيد في نوع المنهج المتبع، فإنني استخدمت:

أ- **المنهج التحليلي الاستنتاجي**: والغرض من اعتماده هو تحليل وقراءة أهم أفكار طه عبد الرحمن الفلسفية واستخلاص استنتاجات.

ب- **المنهج التحليلي النقدي**: والغرض من توظيفه تحليل هذه الاستنتاجات أي جملة النتائج المتوصل إليها وتقديم قراءة نقدية لها.

انطلاقاً من هذا الأفق الإشكالي تمت صياغة هيكل الرسالة في ثلاثة فصول تضمنت عدداً من المباحث نوقش من خلالها عدد من الأسئلة الجزئية في محاولة منا للإجابة بشكل تفصيلي على الأسئلة الرئيسية، تطرقنا في الفصل الأول باعتباره فصلاً تمهيدياً والموسوم بـ «مدخل مفاهيمي»، ومناقشة من خلاله إشكالية فلسفة الاختلاف في ثلاث مباحث، انطلاقاً من مفهوم فلسفة الاختلاف، آلياتها وكرونولوجيا المفهوم (المسار التاريخي لفلسفة الاختلاف).

أما الفصل الثاني والموسوم بـ «مدخل لفلسفة طه عبد الرحمن ورؤيته لمفهوم الاختلاف»، إذ سنتطرق من خلال هذا الفصل إلى طرح رؤية المفكر المفاهيم وتصوره للفلسفة بين العالمية والخصوصية.

وأخير الفصل الثالث الذي سنناقش فيه حق الابتكار الفلسفي ومجالات الإبداع فيه من المنظور الطاهي والآفات التي تسببت في تراجع الإبداع الفلسفي، والتجديد في مناهج التقويم للحدثة ومقوماتها في وجهة نظر الفيلسوف طه عبد الرحمن.

أما فيما يخص لخاتمة نتصور أنه نبين أهم آفاق هذه الدراسة أن تكون بداية أو مقدمة لدراسات لاحقة، أركز في الاشتغال لخصنا من خلالها أهم النتائج والأفكار التي قادنا البحث إليها.

كما يجب التأكيد على أن القيام بعمل أكاديمي وتقديم بحث منهجي ليس بالأمر الهين، بل تواجهه صعوبات جمة وعراقيل مختلفة، وهذا ما وقع لنا في هذا البحث فعلى قدر المتعة التي عشناها

في التعامل مع فكر طه عبد الرحمن، والتعاطي مع فلسفته ومنهجه، على قدر المعاناة التي كابدها جراء العوائق العديدة التي واجهتنا والتي ليس من السهل تذليلها ويمكن حصرها في نقطتين هما:

- قلة الأعمال والأبحاث حول فكر طه عبد الرحمن ومشروعه التجديدي، وافتقار الساحة الفكرية العربية والإسلامية إلى دراسات فكرية وعلمية وأكاديمية معمقة، تحلل وتقيم فكر طه عبد الرحمن، ما عدا تلخيصها أو استخلاص بعض الأفكار والنتائج منها على سبيل المثال التلخيص الذي قدمه عباس أرحيلة للكلمة التي ألقاها طه عبد الرحمن يوم 11 مارس 2006، بمقر منتدى الحكمة للمفكرين والباحثين، أو المؤتمر الدولي حول الإبداع الفكر بين النظرة التكاملية للعلوم والمنظور التأثيلي لاستشكال المفاهيم الذي كان يومي 26-27 فبراير 2014 احتفاءً بجهوده.

- إن الطابع الأكاديمي لأعمال طه عبد الرحمن جعل من الصعوبة بما كان التعامل معها، خصوصاً من حيث البناء اللغوي والمنطقي، حتى أنها تبدو وكأنها مستغلقة على الفهم، ولا يمكن استيعاب دلالاتها ومعانيها إلا بعد التردد عليها لعدة مرات أو الاستعانة بالمصادر الأولى التي استقى منها طه عبد الرحمن أفكاره.

- لكن رغم هذه العوائق والعراقيل إلا أنه تم بعون الله إنجاز هذا العمل المتواضع الذي نأمل أن يكون قد ساهم ولو بالقليل في تحليل بعض الجوانب من فكر طه عبد الرحمن.